ورفعه، فدعا له، وبدأه أبو الحسن، وقال: أتقول بمقالة أهل الاعتزال؟ قال: لا. قال: وبالرفض؟ قال: لا، ولكنِّي أُنكِرُ على هؤلاء سماع الغناء والضربَ بالقصب، وهو خلاف الشرع. وافترقوا.

[وذكره هلال بن الصابئ وقال: حُمل من داره بقطيعة النصارى إلى المسجد الجامع بالمدينة ـ يعني جامع المنصور ـ ودُفن في جوار قبر أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى].

السنة الثامنة والتسعون وثلاث مئة

فيها في يوم عاشوراء عمل أهل الكَرْخ ما جرت به العادة من النَّوح وتعليق المُسوح على رؤوسهم[1] وقصدوا مقابر قريش، فلم يتعرَّض لهم أحد، واتَّفق يومُ عاشوراء يومَ المهرجان، فأخَّره عميد الجيوش إلى اليوم الثاني، ثم جلس وعمل سماطاً على العادة، وجلس للتهنئة.

وفي المُحرَّم تعرَّض بنو هلال ـ وكانوا ستَّ مئة فارس ـ لحاجِّ البصرة الذين انفصلوا عن حاجِّ العراق عند الموضع المعروف بالسَّاج، فأخذوا أموالهم وجمالهم، وأفلتَ مَنْ دخل البصرة على أقبح حالٍ من العُري والجوع والعطش، فيقال: إنهم أخذوا منهم مئة ألف دينار.

وفي كانون سقط الثلج بالعراق سقوطاً عظيماً، فكان على وجه الأرض ذراعاً ونصفاً، وعمَّ الكوفةَ وواسطاً والبصرةَ والبطائح على هذا الوجه، ولم يُعهَدْ سقوطُ الثلج بالبصرة إلا في سنة تسعين ومئتين.

وفيها سار بدر بن حسنويه إلى الري معاوناً للسيدة أم مجد الدولة على عَوْدها إلى موضعها، ومُرَتِّباً لشمس الدولة أبي طاهر في الإمارة عوضاً عن أخيه مجد الدولة.

ذكر السبب:

كان الخطير أبو علي القاسم بن علي قد منعَ السيدةَ من التصرُّف، وقبضَ يدَها، وأوحشَ مجدَ الدولة منها، ووضعَ الدَّيلم، حتى قالوا: ما للنساءِ والملك؟ وكان وزيرُها أبو سعد بن الفضل بالرَّي، فأخافه، فهرب، فصَعِدت السيدة إلى القلعة

(١) في (خ) و(ب): رسومهم، والمثبت من (م) و(م١).

وتحصَّنَتْ بها، فرتَّب الخطيرُ تحتها جماعةً يمنعونها من الخروج، فكانت في صورة المعتقلة، وكانت لها جاريةٌ تشبهها، فكانت تنزل كلَّ يومٍ تأخذ لها من نهرٍ تحت القلعة وتصعد، فألِفَ الموكلون، وأرسلت السيدة إلى قوم من أهل الرسداق فيهم عصبيةٌ وفتوة، فَوائَقتْهم على حملها إلى بلاد بدر بن حسنويه، فجاؤوا فنزلوا على النهر كأنهم عابرو سبيل، ونزلت وبيدها الجرَّة كأنها الجارية، وركبت دابَّةً، وساروا بها إلى بلد بدر بن حسنويه، وذلك في سنة سبع وتسعين، وكان في نفس بدر من الخطير، فأكرمها بدر، وسار بنفسه معها، وكان ابنُها شمس الدولة بهمَذَان، فوافاها بعساكر هَمَذان، وقَبَّل بدرٌ بين يديه الأرض، وساروا إلى الريِّ، فأطلق الخطيرُ الأموال، واستخلف الدَّيلمَ، ووقع القتالُ، وجرى على الريِّ أمرٌ عظيم من الحريق والنَّهب والقتل، وظفر بدرٌ بالخطير، فقبض عليه، وقبضت السيدةُ على ابنِها مجدِ الدولة، وأصعدَتْه إلى القلعة، وأقعدت شمسَ الدولة ابنَها على السرير، وعادت إلى ما كانت عليه، وعاد بدرٌ إلى بلاده، وأخذ الخطيرَ معه وعذَّبه حتى مات، وتغيَّرت أخلاقُ شمس الدولة، وتمكَّنت منه المرة السوداء، فرجع إلى هَمَذان، وساسَتِ السيدة الملك، ودبَّرتِ الأمورَ أعظم من الرجال، وكانت تجلس من وراء سترٍ خفيفٍ، والعارضُ والوزيرُ جالسان بين يديها يخاطبانها وتخاطبهما، وهما يُنفِّذان الأمور، وكانت قد عزمَتْ على قَبْضِ شمس الدولة، فهرب إلى قُم.

وفيها كانت وقعةٌ عظيمةٌ بين السُّنَّة والشيعة ببغداد، وسببها أنَّ بعضَ الهاشميين من أهل باب البصرة قصدَ أبا عبد الله محمد بن النعمان المعروف بابن المعلم ـ فقيه الشيعة ـ في مسجده بالكَرْخ بدرب رياح، ونال منه، فثار أصحابه، واستنفروا أهل الكَرْخ، وصاروا إلى دار القاضي أبي محمد ابن الأكفاني وأبي حامد الإسفراييني، فسبُّوهما وشتموهما، ونشأتِ الفتنة، وركب صاحبُ المعونة، واجتهد في كفِّ العامة، وكتب إلى عميد الجيوش وهو بالنُّعمانية، واتَّفق أنَّ أبا حازم محمد بن الواسطي أحضر مصحفاً إلى دار الخلافة، ذُكِرَ أنَّه مصحف عبد الله بن مسعود، فقُوبِلَ بمصحف عثمان

ـ رضوان الله عليه ـ والمصاحفِ المألوفة، فخالفها، فجمع القضاةَ والأشرافَ والفقهاءَ في رجب في دار الخلافة، وأخرج المصحف إليهم، وسُئِلوا عنه، فأفتى أبو حامد الإسفراييني بتحريقه، فأُحرِقَ بمحضرٍ منهم، وبلغ الخليفةَ أنَّ رجلاً كيَّالاً ـ يُعرف بابن قَراح ـ حضر المشهد بالحائر ليلة نصف شعبان، وسبَّ مَنْ أحرقَ المصحف، فتقدَّم إلى صاحب المعونة بالقبض عليه، وأمر بقتله، وكان من الشِّيعة، وتولَّاه جماعةٌ من الأتراك، فقُتِلَ بالحَلَبة[١] لتسعٍ بَقِينَ من شعبان، وثارَ أهلُ الكَرْخ، ووقعت الفتنة بين السُّنَّة والشيعة، وقصَدَ أحداثُ الكَرْخ دارَ أبي حامد، فانتقل عنها إلى دار القُطْن، وصاحوا: حاكم يا منصور. وبلغ القادرَ، فأنفذ الخَوَل[٢] الذين على بابه لمعاونة السُّنَّة، وتكاثرت الجموع، وساعدَهم الأتراك، وأحرقوا بعض الكَرْخ ومُعْظَم الأسواق ونهبوها، وركب نوَّابُ المملكة، وعاتبوا الغِلْمان التُّرك، ورَدُّوهُم وقصد من الغد الأشرافُ والطالبيُّون ووجوهُ التُّجارِ بالكَرْخ دارَ الخليفة، وتبرَّؤوا مما فعله السُّفهاء، وسألوا حِراستَهم في منازلهم، فعفا القادرُ عنهم، وروسِلَ عميدُ الجيوش، فدخل بغداد في حادي عشر رمضان يوم الخميس، فأخرج ابنَ المعلم إلى سُوراء[٣]، وقبض على رؤوس الفتنة، وقتلَ البعض، وحبسَ البعض، وقامتِ الهَيبة، ورجع أبو حامد إلى داره، ومُنع القُصَّاصُ من الوعظ، وشفع أبو الحسن علي بن مَزْيد في ابنِ المُعلِّم، فرُدَّ إلى منـزله، وراسل القادرُ عميدَ الجيوش في معنى القُصَّاص والوُعَّاظ، فردَّهم، وشرط عليهم أن لا يتكلَّموا في ما يوجب الفتنة، واستقامت الأمور.

وفيها زُلزِلَتِ الدِّينَور، فَهُدِمَتِ المنازلُ، وأهلكَتْ أكثرَ الناس. وقيل: أهلكَتْ ستة عشر ألف إنسان سوى مَنْ ساخَتْ به الأرض، وخرج مَنْ سَلِمَ من البلد إلى الصحراء، وبَنَوا لهم أكواخاً من القصب، وذهب من الأموال والأمتعة ما لا يُعَدُّ[٤] من البلد ولا يُحصى.

---

(١) الحَلَبة: محلة واسعة في شرقي بغداد. معجم البلدان ٢/ ٢٩٠.

(٢) الخَوَل: الحشَم. الصحاح (خول).

(٣) سُوراء: موضع إلى جنب بغداد. معجم البلدان ٣/ ٢٧٨.

(٤) في (خ) و (ب): يُحَدُّ، والمثبت من (م) و (م١).

وهَبَّتْ بدَقوقا ريحٌ سوداء[١]، فقلعتِ المنازلَ والنخل والزيتون، وقتلت كثيراً من الناس، وامتدَّتْ إلى تكريت، ففعلَتْ[٢] مثلَ ذلك، وكذا فعلَتْ بفارس، وأُخرِبَتْ شيراز، وغرق بسيراف[٣] بهذه الريح مراكبُ كثيرة.

ووقع بالعراق بَرَدٌ، في كلِّ بَردة مئة درهم، سوى ما ذاب منها.

وفيها هدم الحاكمُ بِيْعةَ قمامة ـ التي بالبيت المقدَّس ـ وغيرَها من البِيَع والكنائس بمصر والشام ، وألزمَ أهلَ الذمَّة الغيار[٤] [قال هلال بن الصابئ: حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن الخضر المصري قال:] وكانت العادةُ جاريةً بأن يخرج النصارى من مصر في كل سنة في العماريات إلى القدس؛ لحضور فِصْحِهم [في بِيْعة قمامة]، فخرجوا في هذه السَّنة على العادةِ مُظهرين التجمُّلَ كما يخرج الحاجُّ إلى مكة، فسأل الحاكم خَتَكين العَضُدي [الداعي، وكان بين يديه عن أمر النصارى في قصد هذه البِيْعة، وكان قد عرف أمرَها لمَّا كان يتردَّد إلى الشام]، فقال: يا مولانا، هذه بِيْعةٌ يُعظِّمها النصارى ويقصدونها ـ يوم فِصْحِهم ـ من كلِّ المواضع، وربما صارَ إليها ملوكُ الروم متنكِّرين، ويحملون إليها الأموال والثياب [والستور والفُرش]، ويصوغون لها القناديل والصُّلبان والأواني من الذهب والفضة، فإذا حضروا يوم الفِصْحِ أظهروا زينتَهم، ونصبوا صُلبانَهم، ورفعوا أصواتَهم، ووقع الشَّبه في عقولهم[٥] أنَّ قُوَّام البِيَعة يُعلِّقون القناديلَ في بيت المذبح، ويوصِلون إليها النارَ بِدُهن البَلَسان[٦] ـ ومن طبيعته أنَّه يجذب النار ـ ويجعلون فيها دُهن الزَّنبق، ويجعلون بين كلِّ قنديلٍ وما يليه حديداً كهيئة الخيط متصلاً من واحد إلى واحد، ويطلونه بدُهن البَلَسان حتى يسري في الجميع، وعندهم أنَّ مهدَ عيسى عليه السلام في البِيْعة، وأنه عُرِجَ به إلى السماء منه، فإذا كان يومُ فِصْحِهم

(١) في (خ): أسود، والمثبت من باقي النسخ.

(٢) في (ب) وحدها: فقلعت.

(٣) تحرفت في (م١) إلى: بشيراز.

(٤) الغِيار: هو أن يخيطوا على ثيابهم الظاهرة ما يخالف لونَه لونَها، وتكون الخياطة على الكتف دون الذيل معجم متن اللغة ٣٣٨/٤ .

(٥) في (خ): قلوبهم، والمثبت من باقي النسخ.

(٦) البَلَسان: شجر لحبِّه دهن حارٌّ يُتنافس فيه. اللسان (بلس).

اجتمع النصارى والأقِسَّاء والرُّهبان [وجميع أهل دين النصرانية] في البيت الذي فيه القناديل، وأوقدوا الشموع [فيه]، وتنضاف إليه أنفاس ذلك الخلق العظيم، فيحمى المكان، ويتوصَّل بعض القُوَّام إلى أن يُقرِّب النارَ من[١] الخيط فتعلقَ به، [ثم] تنتقل بين القناديل من واحد إلى واحد، ويُشعَلُ الكلُّ، فيُقدِّر مَنْ يشاهد ذلك أن ناراً نزلت من السماء فأشعلت القناديل، فيكثر تهليلُهم وتكبيرُهم، ثم يتفرَّقون، فلمَّا سمع الحاكمُ ذلك أمر كاتب الإنشاء فكتب إلى والي[٢] الرَّملة وإلى أحمد بن يوسف[٣] الداعي أن يقصدا بيتَ المقدس، ويستَصْحِبا القُضاةَ والشهودَ والأشرافَ ووجوهَ البلد، وينزلا بِيْعة قمامة، ويُبيحا للعامَّة نهبَها [وأخْذَ ما فيها] [٤]، ويتقدَّما بنقضها وتعفية أثرها، [وأن] يعملا محضراً بذلك، [وينفذانه إلى حضرته] وقد كانت النصارى بمصر علمت[٥]، فأرسلوا إلى البطرك [الذي كان بها] يُعرِّفونه، فأخرج ما كان فيها من الجواهر والثياب والذهب والفضة، وورد أصحاب الحاكم [إلى بيعة قمامة] [٦] فأحاطوا بها، وأباحوا للعامَّة نَهْبَها، فأخذوا من الباقي الموجود ما عظُم قَدْرُه، وقُلِعتْ حجراً حجراً، [وكتبوا بذلك محضراً، وأخذوا فيه خطوط القضاة والعدول، وهدم كلَّ بِيعة بالشام ومصر] فيقال: إنه هدم ألوفاً من البِيَع والكنائس، ونودي في أهل الذِّمَّة: مَنْ أراد الدخول في الإسلام دخل، ومَنْ أراد النقلة إلى بلاد الروم كان آمناً، ومن أقام فليلْبَس الغيار، ويلتزم ما يشترط عليه، فخافوا أن يكون هذا خديعةً ليُقتلوا، فأسلم أكثرُهم، وخرج بعضهم إلى الروم، ومن كان ثقيلَ الظَّهر أقام، فشرط عليهم تعليق الصُّلبان في صدورهم، وشرط على اليهود تعليقَ تمثالٍ على هيئة رأس عجل، ومنعهم من ركوب الخيل والتختُّمِ في اليمين، ورخَّص لهم في ركوب الحمير والبغال بالسروج

(١) في (خ): إلى، والمثبت من باقي النسخ.
(٢) تحرفت في (خ) إلى: وادي.
(٣) في (م) و (م١): يعقوب.
(٤) هذه الزيادة من (م) وحدها.
(٥) في (خ) و (ب): عملت، والمثبت من (م) و(م١).
(٦) هذه الزيادة من (م) وحدها.

السواذج[١] والرُّكُب الخشب، وفي كلِّ صليب أربعة أرطال بالبغدادي، والخشبة التي يعلِّقها اليهودي كالمِدقَّة، وزنُها ستة أرطال، وإذا دخلوا الحمامات علَّقوا في أعناقهم أجراساً؛ ليتميَّزوا عن المسلمين. فلمَّا كان قُبيل قتل الحاكم عدلَ عن هذه الطريقة [معهم]، وفسَحَ لمن أسلم منهم أن يرجع إلى دينه، فارتدَّ أكثرُهم، وأمر بإعادة البِيَعِ المهدومة، فرجعَتْ إلى أحسنَ ما كانت عليه من العمارة، فيقال: إنه عاد في أسبوع واحدٍ من النصارى ستةُ آلاف حين أعادَ بِيَعَهم وكنائسهم، وأقرَّهم على دينهم[٢]، [وفرحتِ العامَّة وقالوا: قد نزَّه اللهُ مساجدَنا ومواضعَ صلواتِنا عمَّن يعتقد خلافَ ما نعتقد. وقيل: إن الحاكم هو القائل: نُنزِّه مساجدنا مواضعَ صلواتنا عنهم. وهو غلطٌ على كلِّ حال، وقد كان الواجب قتل من ارتدَّ منهم عن الإسلام.

قلت: ما ذكره ابن الصابئ في صفة إشعال القناديل على الوصف الذي ذكره لا يصح؛ فإنِّي] سكنتُ في البيت المقدس عشرَ سنين، وكنتُ أدخلُ إلى القُمامة[٣] في يوم فصحهم وغيرِه، وبحثتُ عن إشعال القناديل في يوم الأحد [ويسمُّونه] عيد النور، و[ذلك لأنَّ] في وسط القُمامة قُبَّةً فيها قبرٌ يعتقد النصارى أنَّ المسيح عليه السلام لمَّا صُلِبَ دُفِنَ فيه، ثمَّ ارتفع إلى السماء، فإذا كانت ليلة السبت في السَّحر دخلوا إلى هذه القُبَّة فغسلوا قناديلها، ولهم فيها طاقاتٌ مدفونةٌ في الرُّخام، وفي الطاقات قناديل قد أُوقِدت من السَّحر، ولِلقُبَّة شبابيك، فإذا كان وقتُ الظُّهر اجتمع أهلُ دين النصرانية [من كلِّ فجٍّ عميق][٤]، وجاء الأقِسَّاء فدخلوا القُبَّة، وطاف النصارى من وقت الظهر حولها يتوقَّعون نزول النور، فإذا قارب غروبَ الشمس تقول الأقِسَّاء: إن المسيح ساخطٌ عليكم. فيضجُّون ويبكون، ويرمون على القبر الذهب والفضة والثياب فتحصل [لهم] جملةٌ كبيرةٌ، ويُردِّد القِسِّيسُ هذا القولَ وهم يبكون ويضِجُّون ويرمون ما معهم،

(١) السَّاذج: الخالص غير المشوب وغير المنقوش. المعجم الوسيط (سذج).

(٢) هكذا في (خ) (ب)، وجاء في (م) و (م١): فيقال: إنه عاد في أسبوع واحد ستة آلاف إلى دينهم.

(٣) في (م) وحدها: القيامة. وكلاهما صحيح؛ قال ابن الأثير في الكامل ٩/ ٢٠٩: والعامَّة تسمِّيها القيامة.

(٤) ما بين حاصرتين من (م) وحدها.

فإذا غربتِ الشمسُ أظلمَ المكانُ، فيُغافلهم بعضُ الأقِسَّاء، ويفتح طاقةً من زاوية القُبَّة بحيث لا يراه أحد، ويوقد شمعةً من بعض القناديل، ويصيح: قد نزل النور، ورضي المسيح. وتخرج الشمعةُ من بعض الشبابيك، فيضِجُّون ضجَّةً عظيمةً [ويقولون: نزل النور]، ويوقدون الفوانيس، ويحملون هذه النارَ إلى عكا وصور وجميع بلد الفرنج، حتى رومِيَّة والجزائرِ، وقسطنطينيةَ وغيرِها؛ تعظيماً لها.

وحدثني جماعةٌ من المجاورين بالقدس، قالوا: لمَّا فتح صلاح الدين ـ رحمه الله ـ القدسَ وجاء يوم الفِصْحِ، جاء بنفسه فدخل القُبَّة [التي فيها القبر] وقال: أريد [أن] أشاهدَ نزولَ النور. فقال له البطرك: تُريد أن تضيِّع علينا وعليك أموالاً كبيرةً[1] بقعودِكَ عندنا، فإنْ أردتَ المالَ فقُمْ عنَّا. فقام، فما بلغ بابَ القُبَّة حتى صاحوا [وقالوا]: نزل النور. فقال بعض الحاضرين: [من الطويل]

لقد زعمَ القِسِّيسُ أنَّ إلهَهُ ... يُنَزِّلُ نوراً بُكرةَ اليومِ أو غَدِ
فإن كانَ نوراً فَهْو نورٌ ورحمةٌ ... وإنْ كانَ ناراً أحرقَتْ كلَّ مُعتدِ
يُقَرِّبُها القِسِّيسُ من شَعْرِ ذَقْنِهِ ... فإنْ لَمْ تُحرِّقْها وإلَّا اقْطعوا يَدي

وحدثني جماعةٌ من أصحاب صلاح الدين ـ رحمه الله ـ أنَّه عزم لمَّا أخذ الفرنجَ على أن يُخرِّبَ قُمامة ويُعَفِّي أثرَها، فقال: نُحضِرُ البطركَ والأقِسَّاءَ والنصارى، ونحفِر مكانَ القبرِ حتى يطلع الماء، ونرمي الترابَ في البحر، ونقول: هذا ترابُ قبرِ إلهكم؛ لتنقطع أطماعُهم عن زيارته ونستريحَ منهم. فقال له أعيان دولته: إنَّ أطماعَهم لا تنقطع بهذا، وليس مُرادهم مكانَ القبر، إنما هم يعتقدون في نفس القدس، وقُمامةُ عندهم أفضلُ من غيرها، وربما أخربوا الجامع الذي بالقُسْطَنْطينية والمساجدَ التي في بلادهم، وقتلوا مَنْ عِنْدَهم من المسلمين، ثمَّ إنهم إنما يصانعونك على القدس لأجل قُمامة، فإذا فعلت ذلك زال ما يصالحونك لأجله[2]، ثم تبطل عليكَ أموالٌ عظيمة، فتنضرُّ وهم لا ينضرُّون. فسكت عن خرابها.

ولم يَحُجَّ في هذه السنة أحد.

---

(١) هكذا في (خ)، وفي باقي النسخ: عظيمة.
(٢) في (م١): زال ما يصانعونك عليه أو لأجله!.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن إبراهيم[١]

أبو العباس، الضَّبِّي، كان رئيساً فاضلاً، ولمَّا احتُضر بعث ابنَه إلى أبي بكر الخُوارَزمي شيخِ الحنفية يسأله أن يبتاع له تُربةً بكَرْبَلاء من الشريف أبي أحمد الموسوي والد المُرْتضى، بخمس مئة دينار، فبعث بالدنانير إلى الشريف، فقال: معاذَ اللهِ، هذا رجلٌ رغِبَ فينا، ولجأ إلى جوار[٢] جدي، لا آخذ لتربتِه ثمناً. فلمَّا خرج تابوتُه خرج الشريفُ معه والأشرافُ، وشيَّعوه إلى جامع براثا، وصلَّوا عليه، ومعه القضاةُ والعدولُ، وبعثَ معه خمسين راجلاً يُوصِلونه إلى كَرْبَلاء.

عبد الله بن محمد[٣]

أبو محمد البخاري، الخُوارَزْمي، الفقيه، الشافعي، كان فصيحاً أديباً، يقول الشعر على البديهة، ويرتجل الخطب الطِّوال من غير رَوِيَّة، ويُنشئ الكتب، قصد صديقاً له ليزوره فلم يجِدْه في داره، فكتب على بابه وقال: [من الخفيف]

كَمْ حَضَرْنا وليسَ يُقضَى التلاقي ... نسألُ اللهَ خيرَ هذا الفِراقِ
إنْ أغِبْ لم تَغِبْ وإنْ لَمْ تَغِبْ غِبْـ ... ـتُ كأنَّ افتراقَنا باتِّفاقِ

وقال: [من المنسرح]

ثلاثةٌ ما اجتمعْنَ في رجلٍ ... إلاَّ وأسْلَمْنَهُ إلى الأجَلِ
ذِلُّ اغترابٍ وفاقةٌ وهوًى ... وكلُّها سائقٌ على عَجَلِ
يا عاذلَ العاشقين إنَّكَ لَوْ ... أنصفتَ رَفَّهْتَهُم عن العَذَلِ
فإنَّهم لو عَرَفْتَ صورتَهُمْ ... عن شُغُلٍ[٤] العاذِلينَ في شَغَلِ

وكانت وفاته ببغداد.

---

(١) معجم الأدباء ٢/ ١٠٥ ـ ١٢٢.
(٢) بعدها في (م١) زيادة: تربة.
(٣) تاريخ بغداد ١٠/ ١٣٩ ـ ١٤٠، والمنتظم ١٥/ ٦٣.
(٤) في نشوار المحاضرة ٦/ ١٣٧ : عذل.

عبد الواحد بن نصر[١]

ابن محمد بن عبيد الله بن عمر بن الحارث بن المطلب المخزومي، أبو الفرج، البَّغاء [كذا نسبه الخطيب، وقال الحافظ ابن عساكر: أصله من نَصيبين، قدم دمشق غير مرة، وله أشعارٌ يصف فيها دير مُرَّان ودمشق، وأوقاته فيهما، وإنما سُمِّي البَّغاء] للَثْغةٍ كانت في لسانه، [وكان أديباً، فاضلاً، شاعراً، مجيداً، كاتباً، مترسِّلاً، مدح الأمراء والفُضلاء والأكابر والعلماء وغيرهم].

قال الثعالبي: كان نجمَ الآفاق، وشمَّامَة الشام والعراق، وظَرفَ الظَّرف، وينبوعَ اللُّطْف، وأوحدَ زمانه في النظم والنثر، ومن شعره ـ قالوا: وكان أمياً لا يُحسن الكتابة، وهذا عجيب ـ: [من الوافر]

أكُلُّ ومـيـضِ بـارقـةٍ كـذوبُ ... أمـا فـي الـدَّهـرِ شـيءٌ لا يُـريـبُ
تـشـابَـهـتِ الـطِّـبـاعُ فـلا دنـيٌّ ... يـحِـنُّ إلـى الـثـنـاءِ ولا لـبـيـبُ
وشـاعَ الـبـخـلُ فـي الأشـيـاءِ حـتَّـى ... يـكـادُ يَـشِـحُّ بـالـريـحِ الـهـبـوبُ
وكـيـفَ أخُـصُّ بـاسـمِ الـعـيـبِ شـيـئـاً ... وأكـثـرُ[٢] مـا نُـشـاهِـدُهُ مَـعـيـبُ

وقال: وكتب بها إلى عميد الجيوش: [من المتقارب]

سـألـتُ زمـانـي بـمـن أسـتـغـيـثُ ... فـقـال اسـتَـغِـثْ بـعـمـيـدِ الـجـيـوشِ
فـنـاديـتُ مـالـي بـهِ حـرمـةٌ ... فـجـاوبَ حُـوشـيـتَ مِـنْ ذا وحُـوشـي
رجـاؤكَ إيَّـاه يُـدنـيـكَ مـنـهُ ... ولـو كـانَ بـالـصِّـيـنِ أو بـالـعـريـشِ
نَـبَـتْ بـيَ دارٌ وفَـرَّ الـعـبـيـدُ ... وأودَتْ ثـيـابـي وبِـعْـتُ فـروشـي
وكـنـتُ أُلـقَّـبُ بـالـبـبَّـغـاءِ ... قـديـمـاً فَـقـدْ مَـزَّقَ الـدَّهْـرُ ريـشـي
وكـانَ غـذائـي نـقـيُّ الأرُزِّ ... فـهـا أنـا مـقـتَـنِـعٌ بـالـحـشـيـشِ

وكتب إليه أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ من الحبس وقد زاره في محبسه فقال: [من الطويل]

---

(١) تاريخ بغداد ١١/ ١١، وتاريخ دمشق ٤٤/ ٤٧ ـ ٥٥ (طبعة مجمع اللغة العربية)، ويتيمة الدهر ١/ ٢٩٣ ـ ٣٣١، والمنتظم ١٥/ ٦٤ ـ ٦٦ . وينظر السير ١٧/ ٩١.

(٢) في (خ): وأكره، والمثبت من (ب).

أبا الفرجِ اسلَمْ وابْقَ وانْعَمْ ولا تَزَلْ ... يزيدُكَ صَرْفُ الدَّهرِ حظًّا إذا نقَصْ
مضَتْ مدَّةٌ تستامُ وصلَكَ غالياً ... فأرخِصْهُ والمبيعُ غالٍ ومُرْتَخَصْ
وآنَستَني في مَجْلِسي بزيارةٍ ... شفَتْ قَرَماً[1] من صاحبٍ لكَ قَدْ خَلَصْ
ولكنَّها كانَتْ كَحسْوةِ طائرٍ ... فَواقاً[2] كما يستَفْرِصُ السارقُ الفُرَصْ
وأحسِبُكَ استوحَشْتَ من ضيقِ مَحْبِسي ... وأوجَسْتَ خوفاً مِنْ تَذَكُّرِكَ القَفَصْ
كذا الكُرَّزُ[3] اللَّماحُ ينجو بنفسهِ ... إذا عاينَ الأشراكَ تُنصَبُ للقَنَصْ
فَحُوشيتَ يا قُسَّ الطيورِ[4] فصاحةً ... إذا أُنشِدَ المنظومُ أو دُرِّسَ القَصَصْ
من المِنْسَرِ[5] الأشغى[6] ومن حَزَّةِ المُدى ... ومن بُندقِ الرامي ومن قَصَّةِ المِقَصْ
ومن صَعْدةٍ فيها من الدَّبْقِ[7] لَهْذَمٌ[8] ... لفُرْسانِكم عند الطِّرادِ[9] بها قَعَصْ
فهذي دواهي الطيرِ وُقِّيت شرَّها ... إذا الدَّهرُ من أحدائِهِ جرَّعَ الغُصَصْ

فأجابه يقول: [من الطويل أيضاً]

أيا ماجداً مُذْ يَمَّمَ المجدَ ما نَكَصْ ... وبدرَ تمامٍ مُذْ تكامَلَ ما نَقَصْ
ستَخْلُصُ مِنْ هذا السِّرارِ[10] وأيُّما ... هلالٌ توارى بالسِّرارِ فما خَلَصْ
برأفةِ تاجِ المِلَّةِ المَلْكِ الذي ... لِسُؤدُدِه في خُطَّة المشتري حِصَصْ
تَقَنَّصْتَ بالإحسانِ شُكري ولم أكُنْ ... علمتُ بأنَّ الحُرَّ بالبِرِّ يُقتَنَصْ
وصادفتُ أدنى[11] فُرصةً فانتهَزْتُها ... بِلُقياكَ إذْ بالحزْمِ تُنْتَهزُ الفُرَصْ

(١) القَرَم: اشتداد الشهوة إلى اللحم. المعجم الوسيط (قرم).
(٢) الفَواق: الوقت بين الحلبتين، أو: الوقت بين قبضتي الحالب للضرع. المعجم الوسيط (فوق).
(٣) الكُرَّز: البازي. الصحاح (كرز).
(٤) المراد به قُسُّ بن ساعدة، وهو الخطيب الجاهلي المشهور، الذي يُضرب به المثلُ في البلاغة والفصاحة.
(٥) المِنسَر: هو ما ينتف به الطائرُ الجارحُ الأشياء، وهو لغير الجارح كالمنقار. المعجم الوسيط (نسر).
(٦) يقال: شغِيَتْ أسنانُه؛ إذا اختلفت نبتتها وتراكبت. أساس البلاغة (شفي).
(٧) الدَّبْق: كل شيء لزج يصاد به الطير. المعجم الوسيط (دبق).
(٨) اللَّهذم: كل شيء قاطع من سنان أو سيف أو ناب. المعجم الوسيط (لهزم).
(٩) هكذا في النسخة الوحيدة التي ذكرت تلك الأبيات وهي نسخة (خ)، وفي المصادر: الطعان.
(١٠) السِّرار أو السَّرار أو السَّرر: آخر يوم أو يومين في الشهر وذلك عندما يستسِرُّ الهلال. اللسان (سرر).
(١١) المثبت من اليتيمة وغيرها من المصادر، وفي النسخة الخطية: أسنى، ولا معنى لها!.

أتتني القوافي الباهراتُ تُحمِّلُ الْـ ... بدائعَ من مُسْتحْسنِ الجِدِّ والرُّخصْ
فقابلتُ زهْرَ الرَّوضِ منها ولم أكدْ[1] ... وأحْرَزْتُ دُرَّ البحرِ منها ولم أغُصْ
فإنْ كنتُ بالبَغاء قِدْماً مُلقَّباً ... فكمْ لَقَبٍ بالجَوْرِ لا العدلِ مُختَرَصْ
وبعدُ فما أخشى تقنُّصَ جَارحٍ ... وقلبُكَ لي وَكْرٌ وصدرُكَ لي قَفَصْ

وقال: [من البسيط]

سلوا الصبابةَ عنِّي هَلْ خَلْوتُ بِمَنْ ... أهوى مع الشَّوقِ إلَّا والعفافُ معي
وحافظي من دواعي الحبِّ معرفتي ... أنِّي من المجدِ في مُرادٍ مُستَمِعِ
تأبى الدناءةَ لي نفسٌ نفائِسُها ... تسعى لغير الرِّضا بالرَّيِّ والشِّبَعِ
وهمَّةٌ ما أظنُّ الخطَّ يُدْرِكُها ... إلَّا وقَدْ جاوزتْ بي كلَّ مُمتنِعِ
لا صاحبَتْني نفسٌ إنْ هَمَمْتُ بأنْ ... أرمي بها غَمَراتِ الموتِ لم تُطِعِ
على جناب العُلا حِلِّي ومُرْتَحَلي ... وفي حمى المجدِ مُصْطافي ومُرْتَبعي
وما نضوتُ لباسَ الذُّلِّ عن أملي ... حتى جعلتُ دُروعَ اليأسِ مُدَّرعي
وكلُّ مَنْ لم تؤدِّبْهُ خلائِقُهُ ... فإنَّهُ بِعِظَاتي غيرُ مُنتفعِ

وقال: [من البسيط]

يا سادتي هذهِ رُوحي تُشَيِّعكُمْ ... إنْ كانَ لا الصبرُ يُسليها ولا الجزَعُ
قد كنتُ أطمعُ في رُوحِ الحياةِ لها ... فالآنَ مُذْ غِبْتُمُ لم يبقَ لي طَمَعُ
لا عذَّبَ اللهُ رُوحي بالبقاءِ فما ... أظنُّها بعدَكُمْ بالعيشِ تنتفِعُ

وقيل: إنَّها للوَأواء الدمشقي.

وقال: [من البسيط أيضاً]

يا مَنْ تشابَهَ منه الخَلْقُ والخُلُقُ ... فما تُسافرُ إلَّا نحوَهُ الحَدَقُ
تُريدُ دَمعي مِنْ خدَّيكَ مُختلَسٌ ... وسُقْمُ جِسمي من جَفْنَيكَ مُسْتَرَقُ
لم يبقَ لي رَمَقٌ أشكو إليكَ بِهِ ... وإنما يتشكَّى مَنْ بهِ رَمَقُ

(١) في تاريخ دمشق: يكد، وفي اليتيمة: أرع.

وقال في سيف الدولة بن حمدان: [من البسيط أيضاً]

وواصلَتْني صلاتٌ منكَ رُحْتُ بها ... أختالُ ما بين عزِّ الجاهِ والمالِ
فلينظُرِ الدهرُ عُقبى ما صبرتُ لهُ ... إذْ كان من بعضِ حُسَّادي وعُذَّالِ
يا عارضاً لم أشِمْ مُذْ كنتُ بارِقَهُ ... إلَّا رَوِيتُ بغيثٍ منهُ هطَّالِ
رُويْدَ جودِكَ قد ضاقَتْ به هِمَمي ... وردَّ عنِّي برَغْمِ[1] الدَّهرِ إقلالي
لم يبقَ لي أملٌ أرجو نَدَاك بهِ ... دَهري لأنَّكَ قد أفنيتَ آمالي

وكتب إلى المحسن بن علي القاضي التنوخي[2] يتوجَّع له من محنةٍ لحِقَتْه: مُدَدُ النِّعم ـ أطالَ اللهُ بقاء سيدنا القاضي ـ بغفلات المسارِّ، وإن طالَتْ، أحلامٌ، وساعاتُ المِحَن، وإن قَصُرَت بشوائب الهموم، أعوامٌ، فأحْظانا بالمواهب من ارتبطها بالشكر، وأنهضُنا بأعباء المصائب مَنْ قاومها بعُدَد الصبر، إذ كان أوَّلُها بالعِظَةِ مُذكِّراً، وآخرها بمضمون الفرج مُبشِّراً، وإنما [يتمسكُ بتفريط العجزِ، ويُفسد] ضالَّة الحكمة مَنْ كان بسنةِ الغفلة مغموراً، وبضعفِ الرأيِ والمِنَّة مقهوراً، وفي انتهازِ فُرَصِ الحزم مُفرِّطاً، ولمَرْضيِّ ما اختاره الله مُتَسخِّطاً، وسيِّدُنا القاضي أنوَرُ بصيرةً، وأَظْهَرُ سريرةً، وأكملُ حزماً، وأنفَذُ مَضاءً وعزماً، من أن يتسلَّطَ الشكُّ على يقينه، أو يقدحَ اعتراضُ الشُّبهِ في فتوَّتِه ومروءتِه ودينِه، فليتلَقَّ قضاءَ اللهِ بالرضا والتسليم، فهو ممن قال الله فيهم: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩].

وكانت وفاتُه في شعبان، ومن شعره: [من مجزوء الكامل]

أشتاقُهُ فإذا بدا ... أطرقتُ[3] من إجلالِهِ
وأصدُّ عنه إذا دنا ... وأرومُ طيفَ خيالِهِ
لا خِيفةً بل هَيبةً ... وصيانةً لجمالِهِ
فالموتُ في إعراضِهِ ... والعيشُ[4] في إقبالِهِ

(١) في تاريخ دمشق: بعزم، والمثبت من النسخة الخطية، وهو الموافق لما في تاريخ بغداد واليتيمة وغيرها.
(٢) الفرج بعد الشدة ١/ ١٥٢ وما بين حاصرتين منه.
(٣) في تاريخ دمشق: أعرضت.
(٤) في تاريخ دمشق: والموت.

أبو منصور بن بهاء الدولة

وقيل: اسمه بُوَيْه، توفِّي بالبصرة يوم الأحد ثاني شعبان، وكان أبوه خائفاً عليه، وقد منع الجندَ من الكلام معه، وضيَّق عليه، وعزم على الخروج إلى تُسْتَر، فأراد الخروجَ معه، فحُمَّ حُمَّى حادَّة قبل أن يخرج أبوه، فقيل لأبيه: إنه محمومٌ ولا حركةَ به، وإن أخرجْتَه تلِف. فقال: لا بُدَّ من حَمْلِه ولو في فردة. فقال الأطباء: متى خرج لم يَسْلَم. فتركه. وخرج، واشتدَّ مرضُه، وانصبَّتْ إلى فخذه مادةٌ احتيج إلى فتحها، فقالوا: لا بُدَّ من مشاورة أبيه، فإلى أن أتى الجواب مات، وكتبوا إلى أبيه بوفاته، فلم يتجاسَرْ أحدٌ على إعلامه، فأمر أبو الخطاب الفرَّاشين أن يرفعوا المخادَّ من مجلسه إذا قام، ويجعلوا مكانها كساءً طبريًّا، ففعلوا، فأحسَّ بالقصَّة، ودخل عليه أبو الخطاب في قميصٍ ورداء، فقال: ما الذي ورد من حال أبي منصور؟ فدمعَتْ عينا أبي الخطاب، فضرب حينئذٍ بهاءُ الدولة بنفسه إلى الأرض،وجزع جزعاً شديداً، ولبس السواد، ودخل عليه الناسُ حفاةً بالسواد، وهجر الأكل والشرب والنوم، وواصل البكاء والحزن إلى أن عاد إلى البصرة، وبقي مدةً، فاجتمع إليه وجوه الدَّيلم وعزَّوه، وسألوه أن يرجع إلى عادته، ففعل[1].

السنة التاسعة والتسعون وثلاث مئة

فيها لحقَ الحاجَّ عند عَوْدِهم من مكةَ اعتراضٌ من العرب، فقرَّر عليهم أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوي مالاً، ودخل الناسُ الكوفةَ بعد أن لاقَوا مشقَّةً شديدةً، وأقاموا بها خائفين من الطُّرق، حتى أرسل إليهم أبو الحسن علي بن مَزْيَد أخاه حماداً، فحملهم إلى المدائن، ثم دخلوا بغداد.

وفيها استوهَبَ المناصحُ أبو الهيجاء من عميد الجيوش [ـ البستان الذي يقال له: النجمي، وكان بإزاء دار الخلافة ـ][2] فشرع في مَرَمَّة مسناته، وإصلاح روشَنِه، فثقُلَ

(١) القصة وردت مختصرةً في عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٤٣٥.

(٢) ما بين حاصرتين هنا وفي الوضع الآتي من (ب).